

قراءة لرواية "أسطورة النداهة" لأحمد خالد توفيق في ضوء المنهج البنوي التكويني لغولدمان

رضا ميرزاىي (الكاتب المسؤول)*

على رضا شيخي**

المخلص

يعتبر النقد الاجتماعي محاولة لإبراز العلاقة بين المجتمع والأدب، فهناك علاقة متبادلة بين الأثر الأدبي وبين المجتمع من حيث التأثير والتأثر. "أحمد خالد توفيق" من رواد أدب الخوف في الأدب العربي. إنّه كتب في التسعينات من القرن الماضي مجموعة ضخمة سميت "ماوراء الطبيعة" في هذا المجال. ومن الناحية الاجتماعية، اهتمّ توفيق في مجموعة ماوراء الطبيعة خاصة في روايته "أسطورة النداهة" ببعض القضايا الاجتماعية المتعلقة بالأرياف المصرية في القرن الماضي بصبغة من الرعب. ومن هذا المنطلق يرمي هذا المقال إلى قراءة أحداث الرواية اعتماداً على المنهج البنوي التكويني النقدي لغولدمان مستخدماً الوصف والتحليل لمناقشة الموضوع هادفاً الكشف عن معرفة الجوانب الاجتماعية المكونة فيها. سعي غولدمان في طريقتة النقدية لإقامة علاقة ذات مغزى بين الشكل الأدبي وأهم جوانب الحياة الاجتماعية. ومن أهمّ النتائج التي توصلنا إليها في دراستنا هذه، أنّ الروائي أحمد خالد توفيق يبحث في روايته عن سرّ تحلّف المصريين وكيفية مواجهتهم بالعلوم في عصر تقدم العلوم البشرية ويعتقد أنّ أهمّ المشاكل الاجتماعية في الأرياف المصرية وهي القضايا المتعلقة بالفقر والعادات الخرافية والحرمان من التعليم. فعلى الرغم أن رواية أسطورة النداهة هي رواية خيالية ولكن تعالج مشاكل المجتمع المصري الريفي في التسعينات، بما في ذلك وجود ظاهرة الخرافة في الأرياف المصرية، والفقر، والحرمان، ومخاوف تكنولوجيا، وما إلى ذلك وهذا ينطبق عليه الكثير من المكونات وعناصر المنهج البنوي التكويني لغولدمان.

المفردات الدليلية: النقد الاجتماعي، الرواية، أحمد خالد توفيق، أسطورة النداهة، المنهج البنوي التكويني.

*. طالب دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة الامام الخميني(ره) الدولية، قزوین، إيران.
rmirzaie_65@yahoo.com

** .أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها بجامعة الامام الخميني(ره) الدولية، قزوین، إيران.
shaikhi@hum.ikiu.ac.ir

تاريخ القبول: ١٣٩٨/٦/٢٩ش

تاريخ الاستلام: ١٣٩٨/٢/١٢ش

المقدمة

إنّ علاقة الأدب بالمجتمع هي تشمل علاقة الأديب بمجتمعه ووعيه لما يجرى حوله وكشفه ما يخصُّ المجتمع وما يخفى على الآخرين. فالأديب يملك القدرة على ربط الماضي بالحاضر وكشفه وترسيخه لقيم الخير وهذه أمور أساسية في الأدب ومن أهدافه. يرتبط علم اجتماع الأدب بعلم الاجتماع من جهة، كما يرتبط بالأدب من جهة أخرى. من ثمّ يعتبر تحليل العلاقة القائمة بين الأدب والمجتمع أساس ظهور النقد الاجتماعي للأدب ويستند هذا المنهج إلى بنية الأدب والمجتمع وهذا يعنى انعكاس القضايا الاجتماعية في الأثر الأدبي عن طريق وجهة النظر الفكرية أو الاعتقادية أو الاجتماعية لدى الكاتب. على ذلك «لقد كانت العلاقة المتبادلة بين المجتمع والأدب موضوعاً مثيراً للاهتمام الباحثين في مجال العلوم الإنسانية منذ أقدم الأيام. وظهرت بواكير الدراسات المتعلقة بالمجتمع والأدب بشكل منهجي مؤطّر بأطر البحث العلمي، في آثار مدام دواستال. حيث عالجت فيها تأثير الدين والتقاليد والعادات الاجتماعية والقوانين البشرية على الأدب كما درست تأثير الأدب على المجتمع والثقافة.» (عسكري، ٢٠١٠م: ٧٣) أما المؤسس الحقيقي لعلم اجتماع الأدب فهو الفيلسوف والكاتب والناقد المجري الماركسي جورج لوكاتش. إنّه من عالج العلاقة بين المجتمع والرواية وتأثير الرؤية الاجتماعية لدى الكاتب على الفكرة الأساسية في الآثار الأدبية. تبعه لوسين غولدمان الذي درس آثاره وأفكاره وجعلها ممنهجة. يرى غولدمان أن الشكل الروائي في واقع الأمر انعكاس الحياة اليومية في الساحة الأدبية وهذا يعنى إنّه انعكاس الحياة في المجتمع المؤسس على الفرد الذي ولد لينتج للسوق. وعلى حد تعبيره هناك نوع من التناسق الدقيق بين الشكل الأدبي للرواية وعلاقة الناس مع الآخرين في المجتمع الذي ينتج للسوق. كما يعتقد غولدمان «أنّ المبدع في الآثار الثقافية ليس شخصاً واحداً بل هو راجع إلى التفسير الجماعي للحياة حيث إنّ الكاتب يمنحه شكلاً فنياً خاصاً كفرد من تلك المجموعة.» (غولدمان، ١٩٩٣م: ٣٢١) «كان يرى ابوليت تين بأنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة مباشرة وكان يبدي نوعاً من التزمّت في هذا الاتجاه. ففي رأيه يعدّ الأدب انعكاساً للتقاليد والسلوك والأخلاقيات في عصر الكاتب. إنّ الآثار الأدبية وليدة التعامل بين ثلاثة

عوامل وهى: العوامل الحياتية والثقافية والتاريخية. وتبرز العوامل الحياتية فى العنصر؛ أما الثقافية فتظهر فى البيئة والعوامل التاريخية تبرز فى الزمان.» (رحمانى، ٢٠٠٤م: ١٢٠) لقد كان تين من أوائل النقاد الذين تناولوا العلاقات بين الفنان ومجتمعه، وبينه وبين أقرانه، والطرق التى يؤثر بها على الجمهور فى الحصيصة الإبداعية للفنان. لقد كان موضوع العلاقة بين الأدب والمجتمع قديماً عند العرب. نرى فى التراث النقدى العربى القديم نقداً للمجتمع وسلوكياته ككتاب "البخلاء" للجاحظ، والحرص على الربط بين المعنى واللفظ الذى نجده عند بشر بن المعتمر، وبعض الملاحظات المنتشرة فى كتب النقد القديم التى تحت على الربط بين المستوى التعبيرى ومستوى المتلقين. أمّا فى النقد الحديث فنجد بعض الدعوات إلى الاهتمام بالاتجاه الاجتماعى فى النقد الأدبى عند شبلى شميل، وسلامة موسى، وعمر الفاخورى، وقد اقترب هذا المنهج من المدرسة الجدلية عند محمد أمين العالم، وعبد العظيم أنيس، ولويس عوض. حدثت فى عهد الرئيسين السابقين المصريين أنور السادات وحسنى مبارك التطورات الكثيرة فى المجالات المختلفة من السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية خاصة بعد إتخاذ سياسة الانفتاح الذى ارتبط المصريون بالعالم الخارجى أكثر من الوقت الماضى. لعبت هذه التطورات دوراً بارزاً فى دخول مصر إلى الأجواء الجديدة من الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. كان الأدباء من المتأثرين بهذه الأجواء حيث انسجموا مع هذه التطورات الاجتماعية بل كان لهم إسهام فى خلق هذه التطورات فى المجتمع من خلال الآثار الأدبية ذات الصبغة الاجتماعية والإنسانية. غير أن أحمد خالد توفيق الذى يعدّ من رواد الأدب العربى المعاصر فى مجال الأدب الخوف والfantasy والخيال العلمى قد استطاع أن يبدع العديد من الآثار التى مرّت بعالم الخيال والخوف ولكن يكون فى ثنايا آثاره مجال لنقد المجتمع ولتصوير المشاكل الموجودة للمراهقين وللشباب ولعرض التقابل بين العلم والتقاليد السائدة فى المجتمع.

أسئلة البحث

يسعى هذا المقال إلى الإجابة على بعض الأسئلة منها: ١- ما هى التطورات الاجتماعية الحاصلة فى المجتمع أثناء كتابة هذه الرواية؟ ٢- ما هى المشاكل التى

حاول أحمد خالد توفيق تسليط الضوء عليها فى روايته؟ ٣- كيف تكون العلاقة بين بنية الرواية والبنية الذهنية العامة للجماعة الاجتماعية أو للطبقة التى ينسب إليها الكاتب؟

فرضيات البحث

وللإجابة عن الأسئلة يمكن الاستعانة بالفرضيات التالية:

شاهد المجتمع المصرى فى ثمانينات و تسعينات من القرن الماضى الكثير من التطورات و الأحداث خاصة الطبقة الوسطى التى تعرفت على أحدث التكنولوجيات العالمية وهذه خلقت أجواء من القلق والخوف وتسهم فى رؤية هذه الطبقة الخاصة من العالم والمجتمع. فإن العلاقة الجوهرية والمتبادلة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبى تهم البنى الذهنية التى تنظم الوعى التجريبي لفئة اجتماعية معينة والكون التخيلى الذى يبدعه الكاتب وإن البنى الذهنية ذات الدلالة ليست ظواهر فردية وإنما ظواهر اجتماعية وإن العلاقة بين الوعى الجماعى والبنية المنظمة للعمل الأدبى متماثلة تماثلا دقيقا إلا أنها غالبا ما تشكل مجرد علاقة ذات دلالة.

الدراسات السابقة

على الرغم من ممارسة "أحمد خالد توفيق" فى كتابة الرواية والشهرة الواسعة التى يحظى بها الكاتب فى مصر والدول العربية خاصة فى مجال أدب الرعب والfantazya والخيال العلمى أنه مازال غير معروف كما يستحق فى الأوساط الأكاديمية المتعلقة بالأدب العربى فى إيران ولم يصادف كتاب المقالة حسب اطلاعهم بحثاً علمياً حول أعماله الأدبية إضافة إلى ذلك أن الأبحاث التى تناولت حياة الراوى وأعماله فى البلدان العربية ليست بكثيرة إلا ما هى وردت فى الصحف والدوريات العربية. بينما أن هناك أبحاثا قليلة تتحدّث عن توفيق، إن موضوع النقد الاجتماعى وتوظيفه فى الروايات العربية واسع ومتشعب وتناولته دراسات عديدة ونعرضها باختصار على النحو التالى: مقالة "النقد الاجتماعى للأدب نشأته وتطوره" لمحمد خاقانى وآزاده منتظرى ومنصوره زركوب المنشورة فى مجلة إضاءات نقدية سنة ٢٠١٢م فى عددها ٦

ومقالة "نقد جامعه شناختي رمان اوراق عصام عبدالعاطي در مجموعه نيران صديقه از علاء أسواني" لعلی گنجیان ورضوان جمشیدیان المنشورة في مجلة نقد ادب معاصر عربى سنة ٢٠١٥م في عددها ٩ ومقالة "بررسی رمان های عربی و فارسی معاصر از منظر نقد جامعه شناختی مطالعه موردی الشحاذ اثر نجیب محفوظ واشک سیلان نوشته ابراهیم دارابی" لبیمان صالحی و بروین خلیلی المنشورة في مجلة كاوش نامه ادبیات تطبیقی سنة ٢٠١٥م في عددها ١٨ ومقالة "الشعر القصصی عند خلیل مطران فی مرآة النقد الاجتماعي" لناصر قاسمی وزین العابدین فرامرزی في مجلة أدب عربی سنة ٢٠١٦م في عددها ١ وأطروحة "الواقع الاجتماعي في رواية القلاع المتآكلة لمحمد ساری - دراسة بنيوية تكوينية -" لزواوی كهينة المنشورة لنيل شهادة ماجستير بجامعة بويره في الجزائر سنة ٢٠١٤م وغيرها من هذه الدراسات.

منهج البحث

تم إعداد البحث على أساس المنهج البنيوي التكويني للوسيان غولدمان معتمدا فيه على المصادر الأدبية والنقدية خاصة النقد الاجتماعي لتحليل الرواية ونماذجها المختلفة فيه.

نظرية الرواية عند لوسيان غولدمان

المنهج البنيوي التكويني

يستند غولدمان في منهجه إلى إدراك بنية العلاقات الدخلية للنص الأدبي ثم تفسيرها من خلال ربطها ببنية الواقع الاجتماعي والفكرى السائد. على أساس البنيوية التكوينية، «كل سلوك وكل فكر يعتبران محاولة لتقديم جواب دال عن وضعية محددة يعيشها أفراد فئة اجتماعية معينة بشكل يجعلهم يصطدمون بنفس المشاكل والعوائق ويحملون بنفس المثالات والمطامح، كما أن هذا السلوك من جهة ثانية يعتبر محاولة لخلق توازن بين الذات الفاعلة والموضوع المفعول.» (غولدمان، ١٩٩٦م: ١٥) وهذا يعني أن غولدمان يدعو إلى دراسة سلوكات الذات الجماعية وعلاقتها بالوسط الاجتماعي في إطار المادية الجدلية التي ترى أن «كل سوسيولوجيا للفكر تقبل بوجود

تأثير للحياة الاجتماعية على الإبداع الأدبي.» (غولدمان، ١٩٩٣م: ١٣) لقد حاول غولدمان فى تأسيسه لنظرية الرواية الربط بين الوسط الاجتماعى وخصائص الشكل الروائى انطلاقا من علاقات التناظر التى تجمع بين الكائنات فى المجتمع الرأسمالى المنتج للسوق والعلاقات التى يقيمها الناس يوميا بملكاتهم ووسطهم الاجتماعى. (الخطيبى، ١٩٧١م: ١٢٤)

مفاهيم المنهج البنىوى التكوينى

إن استعانة غولدمان فى تصوره وتأسيسه لنظرية الرواية بمقول وأنساق معرفية متعددة ساهمت فى إثراء جهازه النظرى بجملة من المفاهيم التى أسس عليها مقاربتة للنصوص الروائية وأهمها:

البنية الدالة:

إن المقصود بكلمة البنية الدالة أو الدلالية هو المعنى الداخلى لهذه البنية الذى ينم عن وعى جماعى معين. (شحيد، ١٩٨٢م: ٨٠) إن وحدة العمل الأدبى وتماسكه يظهران فى بنيته الدالة التى من خلالها نفهم النسق العام الذى يحكم العملية الإبداعية، كم يرى غولدمان أن الباحث مطالب باكتشاف هذه البنية وبيان وظيفتها فى إطار كلية العمل ولكن لاينبغى التوقف عنده هذه البنية الدالة المتماسكة وإنما يتعين إدراجها ضمن بنية أكثر شمولاً واتساعاً وهى البنية الذهنية للجماعة أو بنية الوعى الاجتماعى العام ومن خلال هذه المرحلة يظهر الجانب التاريخى والوظيفى للبنية الدالة ولذلك نرى أن هذا المفهوم يرتبط ارتباطاً قوياً مع مفهوم رؤية العالم، ففى الأول نفهم النص ونفسره وفى الثانى نلم بدلالته التاريخية والاجتماعية. (شعلان، ٢٠٠٨م: ٥٩-٦٠)

الفهم والتفسير:

لقد أقام لوسيان غولدمان قراءته البنىوية التكوينية على مستويين هامين: أولاً الفهم وفيه يتناول الناقد البنية العميقة للعمل الأدبى وثانياً التفسير وفيه يتم النظر إلى البنية الأدبية باعتبارها وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها، كما أن الفهم عند غولدمان يتأسس

على عناصر أساسية وهي: ١- المحايثة: إذ يجب على الباحث أن يهتم بالموضوع ولا شيء غير الموضوع أى أن يلتصق بالضرورة ببنية العمل دون أن يتجاوزها إلى الخارج الموضوعى. ٢- الاهتمام بكل عناصر هذه البنية وإن تعذر ذلك فأغلبها أى إيلاء للجزء الأكبر من النص أو إذا أردنا لثلاثة أرباعه، بحيث من الصعب تصور فرضيتين لهما نفس الدرجة من البساطة والفعالية. ٣- تحديد العلاقات التي تربط بين هذه العناصر وفهم دلالتها. ٤- استخلاص البنية الدالة إذ على الباحث أن يتوصل إلى العمق الدلالي أى إلى بنية المعنى التي تحرك العمل وتمنحه وظيفة وهذا ما يسميه غولدمان بالدلالة الموضوعية. (الأطاكى، ٢٠٠٩م: ١٣٩-١٤٠) أما المرحلة الثانية التفسير أو التأويل فيتم فيها إدماج هذه البنية الوظيفية ضمن بنية أشمل كالوعى الاجتماعى والطبقى ذلك لأن العمل الأدبي عند غولدمان لا يكتسب دلالاته إلا إذا أدمج فى إطار سلوك أشمل منه وغالبا ما لا يكون هذا السلوك الذى يمكن من فهم العمل الأدبي سلوك الكاتب، ولكنه سلوك فئة اجتماعية قد لا يكون الكاتب منتما إليها.

رؤية العالم:

هو المفهوم الذى استمده من أستاذه جورج لوكاتش إلا أنه تميز عنه بأمرين أساسيين وهما: أولا: لقد تمكن غولدمان من نقل مفهوم رؤية العالم من الفضاء اللوكاتشى الفلسفى والفكرى إلى الفضاء النقدى جاعلا منه أهم أداة إجرائية فى منهجه البنوي التكويني، وهذا ما يوضحه لما بصورة أدق فى كتابه "الإله الخفى" قائلا: «هى ليست معطى تجريبيا مباشرا بل على العكس، أداة عمل إدراكية ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الأفراد، وتظهر أهميتها وواقعيتها حتى على المستوى التجريبى.» (غولدمان، ٢٠١٠م: ٣٨) ثانيا: استطاع غولدمان أن يتجاوز من خلال مفهومه رؤية العالم التحليل الاجتماعى التقليدى للأدب الذى ينظر إلى العمل الأدبي كانعكاس حتمى للبنية التحتية، ويؤسس بذلك نقدا سوسيوولوجيا ينطلق من مفهوم الوسيط الذى يجمع بين الأنساق الأدبية والفنية والأساس الطبقي والاجتماعى الذى تنتمى إليه، وهذا ما يشير إليه فى قوله: «إن أية طريقة فى التفكير والإحساس توجد إجمالا بشكل طبيعى خصوصا لدى أفراد

المجموعات الاجتماعية الذين تتوافق معهم، لكن الفرد كائن معقد جدا ووظائفه فى مجمل الحياة الاجتماعية كثيرة جدا والتوسطات بين فكره والواقع الاقتصادى عديدة جدا ومتنوعة جدار، بحيث لانستطيع حصرها فى حدود تصور فقير لعلم اجتماع ميكانيكى تبسيطى.» (غولدمان، ١٩٨١م: ١٠) إن رؤية العالم عند غولدمان لاتتخصر فى مجموع الأفكار فقط إنما هى تشمل المشاعر والأحاسيس الإنسانية المشتركة بين أفراد الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها العمل الأدبى فهى إذن رؤية جماعية، وهذا ما يكشفه عنه قائلا: «هى تشكل المظهر الأساسى للموس للظاهرة التى يحاول علماء الاجتماع تعريفها منذ عشرات السنين بمصطلح الوعى الجمعى.» (غولدمان، ٢٠١٠م: ٣٩)

الكلية والانسجام:

إن العمل الأدبى عند غولدمان هو تعبير موحد ومتلاحم عن مطامح ورغبات طبقة اجتماعية متجانسة، فهو بذلك أبعد من أن يكون انعكاسا آليا لوعى جماعى، لذا حظيت مفاهيم التلاحم والكلية والانسجام بمكانة مهمة فى الدراسة البنوية التكوينية، وهذا ما نلاحظه فى حديثه عن جمالية التماسك، قائلا: «إن العمل الفنى أو الأدبى يكون ناجحا من الناحية الجمالية عندما ما يدل على معنى متماسك يعبر عنه بشكل مناسب، ويكون المعنى متماسكا عندما يتطابق فيه الفردى والجماعى، علما بأن النزوع إلى التماسك يدخل فى صميم الذات الفردية.» (شحيد، ١٩٨٢م: ٤٢) على رأيه مفهوم الكلية وتوظيفاته متعلق بالعمل الأدبى يعتبر بالنسبة إليه كلا متكاملتا متلاحما ومتماسكا وعلى هذا الأساس يجب على الناقد الأدبى أن يبتعد فى رأيه عن المحاولات والمقاربات التجزيئية التى ارتبطت بالتقد السوسىولوجى التقليدى، ويحاول أن يدرس العمل فى كليته ويبحث فى العلاقات التى تربط بين الأجزاء وتمتعها الكلية.

يجب علينا القول إن البنية التكوينية هى أساس نظرية غولدمان الخاصة بالرواية. يستمد غولدمان منهجه من آراء جورج لوكاتش والنقد الماركسى ويبحث هذا المنهج العلاقة بين المجتمع والعمل الفنى بشكل دقيق ومنهج. ومن هذا المنطلق

يمكن أن نفسر البنية التكوينية لدى غولدمان على النقاط التالية: ١- تكون العلاقة بين الحياة الاجتماعية والعمل الفني متعلقة بالوعى الجماعى. ٢- لا يمكن للفرد (الفنان) وحده أن يكون خالقاً للعمل الفنى بل وعى المجموعة أو الوعى الجماعى خالق العمل الفنى. ٣- إن العلاقة بين البنية الثقافية لطبقة اجتماعية والبنية للعمل الأدبى ذات معنى ومتناسقة. ٤- إن الوحدة والانسجام فى العمل الأدبى ميزتان خاصتان لمنهج البنوية التكوينية ومن ثم يستخدم غولدمان الكلية وهى تعبيرة موحدة ومتلاحمة عن مطامح ورغبات طبقة اجتماعية متجانسة. ٥- إن البنى الحاكمة على الوعى الجماعى والتى تنعكس على عقلية الفنان هى العملية اللاوعية الكاملة.

أحمد خالد توفيق حياته و نشأته

أحمد خالد توفيق فراج، هو الطبيب والأديب المصرى الذى يعتبر أول كاتب عربى فى مجال أدب الرعب والأشهر فى مجال أدب الشباب والفانتازيا والخيال العلمى. ولد عام ١٩٦٢م فى مدينة طنطا عاصمة محافظة الغربية فى مصر. تخرج توفيق فى كلية الطب بجامعة طنطا عام ١٩٨٥م وحصل علي الدكتوراه فى طب المناطق الحارة عام ١٩٩٧م. بدأ توفيق كتابة الرواية بسلسلة "ما وراء الطبيعة" عام ١٩٩٣م ورغم أن أدب الرعب لم يكن سائداً فى ذلك الوقت إلا أن السلسلة حققت نجاحاً كبيراً واستقبالاً جيداً من الجمهور ما شجعه علي استكمال السلسلة، وأصدر بعدها سلسلة "فانتازيا" عام ١٩٩٥م وسلسلة "سفارى" عام ١٩٩٦م وأصدر عام ٢٠٠٦م سلسلة "WWW". (عبدالحنان، ٢٠١٧م: ٦٤)

قام أحمد توفيق بتأليف روايات حققت نجاحاً جماهيرياً واسعاً، وأشهرها رواية "يوتوبيا" عام ٢٠٠٨م والتى ترجمت إلى عدة لغات وأعيد نشرها فى أعوام لاحقة. اشتهر توفيق أيضاً بالكتابات الصحفية، فقد انضم عام ٢٠٠٤م إلى مجلة الشباب التى تصدر عن مؤسسة الأهرام، وكذلك كانت له منشورات عبر جريدة التحرير والعديد من المجلات الأخرى. كان له نشاط فى الترجمة، حيث قام بنشر سلسلة "رجفة الخوف" وهى روايات رعب مترجمة، وكذلك قام بترجمة رواية "نادى القتال" الشهيرة

من تأليف تشاك بولانيك، وكذلك ترجمة رواية "ديرما فوريا" لكريج كليفنجر عام ٢٠١٠م وترجمة رواية عداء "الطائرة الورقية" للروائي الأمريكي من أصل أفغاني خالد الحسيني عام ٢٠١٢م. (Greenberg, ١٧٢:٢٠١٨) استمر نشاطه الأدبي مع مزاولته مهنة الطب، فقد كان عضو هيئة التدريس واستشاري قسم أمراض الباطنة المتوطنة بكلية الطب جامعة طنطا. توفى توفيق في ٢ أبريل عام ٢٠١٨م عن عمر يناهز ٥٥ عام إثر أزمة صحية مفاجئة.

أحمد خالد توفيق وأسطورة النداهة

أسطورة النداهة هي رواية الرقم الثاني من سلسلة "ماوراء الطبيعة" للكاتب أحمد خالد توفيق وتعد السلسلة أول سلسلة روايات عربية فى أدب الرعب التى بدأ إصدارها عام ١٩٩٣م. يكون بطل السلسلة شخصية خيالية وهو الدكتور رفعت إسماعيل طبيب أمراض الدم المصرى المتقاعد.

يروى رفعت فى سلسلة ماوراء الطبيعة ذكرياته عن مجموعة من الأحداث التى تعرض لها فى حياته. بدأت أحداث الرواية حينما عاد إلى قريته كفر بدر إحدى قري محافظة الشرقية. شاهد فى القرية سلسلة من الوقائع بداية من أخيه رضا الذى اصيب بمرض غير عادى و مجهول. سأل رفعت عن رضا وتخبره أمه أنه ليس علي مايرام لأنه لبي نداء النداهة. فيسترجع رفعت ذكرياته عن النداهة، ويذهب إلى دار أخيه ليفحصه وتخبره زوجة أخيه نجاة بما حدث له، ليستدعي رفعت زملاءه الأطباء لإجراء فحص شامل لأخيه، ويرسل عينة من دمه لتحليلها. ثم يذهب رفعت إلى الدكتور عاصم فتحى طبيب الوحدة الصحية المقيم فى القرية ليستفسر منه عن موضوع النداهة. فيتفق رفعت مع عاصم علي مراقبة المنطقة المحيطة بدار رضا إسماعيل حتى يستطيعا أن يحسما أمرهما فى موضوع النداهة هذا، وأثناء المراقبة يقابل رفعت النداهة ومن رعبه يهرب منها ويحذره عاصم من أنه قد يكون الضحية القادمة للنداهة. وفى اليوم التالى يفاجأ الجميع بأن النداهة تنادي رفعت، فتحاول عائلته منعه وينجح فى ذلك طلعت زوج رئيسة، ويظل رفعت فى حالة شديدة البؤس لمدة أسبوعين إلى أن يرسل

تلميذه علاء عبد الصمد تقريره بشأن عينة دم رضا إسماعيل ليقول أنه وجد نسبة ضئيلة من الباربيتورات ويكتشف رفعت سر اللغز، لكن أهله يرفضون أن يتحرك من مكانه خشية عليه من النداهة. عندما يأتي عاصم وزوجته عواطف يخبرهما رفعت بأنهما وراء موضوع النداهة هذا، حيث يقومان بتنويم المرضى تنويماً مغناطيسياً و يجعلانهم أن يلبوا نداء النداهة التي تقوم بشخصيتها عواطف. ثم قام عاصم بإفراغ الحقنة المنومة في وريد رفعت قائلاً: سوف يلتقى بي في المساء بعد أن يلبى نداء النداهة. و في المساء يستيقظ رفعت ليجد نفسه تحت رحمة عاصم وعواطف. يخبره عاصم أنه قام بأعماله للانتقام من سلسلة الاحباطات في حياته، كما أنه يقوم بتجارب علي الذين يقومون بخطفهم تحت دعوي النداهة من أجل تصنيع الأنسان السورمان، لبيداً عاصم تجاربه علي رفعت، لكن رفعت ينجح في الواقعة بين عاصم وزوجته التي تحرر رفعت، فيقوم رفعت بإحضار الشرطة ليجدوا أن عاصم وعواطف قد إنتحرا، لكنهم ينجحون في تحرير المخطوفين وليقضى ذلك علي أسطورة النداهة للأبد.

نقد رواية أسطورة النداهة من منظور المنهج البنيوي التكويني

المنهج التكويني بالأدب بوصفه ظاهرة اجتماعية تاريخية، أخذاً بالاعتبار بنياته الخاصة التي يفسرها في إطار العلاقات الموجودة بين العناصر المكونة لها وبينها وبين العناصر المتفاعلة معها. البنيوية التكوينية تدرس العلاقة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الفني والأدبي، وذلك عن طريق تحليل البنى الأدبية والبنى الاجتماعية. الرواية كإبداع فني على رأى غولدمان فهي تعبير عن رؤية العالم وهي رؤية تتكون داخل جماعة أو طبقة معينة في احتكاكها بالواقع، وصراعها مع الجماعات الأخرى. «إن الرؤية للعالم هي بالتحديد، هذه المجموعة من التطلعات والإحساسات والأفكار التي توحد أعضاء مجموعة اجتماعية، وفي الغالب أعضاء طبقة اجتماعية، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى، إنها بلا شك خطأ تعميمية للمؤرخ، ولكنها تعميمية لتيار حقيقي لدي أعضاء مجموعة يحققون جميعاً هذا الوعي بطريقة واعية ومنسجمة إلى حد ما.» (غولدمان، ٢٠١٠م: ٢٦) «إن النص الأدبي برأى غولدمان هو

بنية متولدة عن بنية أشمل وأعمق هي البنية الاجتماعية للجماعة أو الطبقة التي يمثلها المبدع، ولهذا لا بدّ من دراسة النص الأدبي للكشف عن مدى تجسيده للبنية الفكرية للطبقة أو للجماعة الاجتماعية التي يعبر عنه الكاتب، ونقطه الاتصال بين البنية الدلالية هي العمل الأدبي والوعى الاجتماعى هي أهم الحلقات عند غولدمان والتي يطلق عليه مصطلح "رؤية للعالم"، فكل عمل أدبي يتضمن رؤية للعالم، ليس العمل الأدبي المنفرد فحسب لكن الانتاج الكلى للأديب.» (منتظرى، ٢٠١٢م: ١٦٨)

إن دور المبدع فى رأى غولدمان هو إبراز هذه الرؤية وبلورتها فى أفضل صورة ممكنة ومتكاملة لها، أى أنه يعبر من خلالها عن الطموحات القصوي للجماعة التي ينتمى إليها أو يعبر عن أفكارها، وهذا يعنى أن المبدع ليس هو صاحب الرؤية الفكرية فى العمل الروائى، ولكنه مبرزها وموضحها فقط. يعتقد غولدمان أن «الكاتب لا يعكس الوعى الجمعى... بل علي العكس يقدم بشكل متقن درجة المطابقة البنائية التي أدركها بعمق الوعى الجمعى نفسه فقط. وهكذا فان العمل يلون نشاطا جمعيا عبر الوعى الفردى لمبدعه...» (غولدمان، ١٩٩٣م: ٤١) من ثم أن البناء الجمالى للعمل الروائى يتميز باستقلال نسبي عن بناء العلاقات الاجتماعية وشكلها، لذلك فالنص الروائى لا يطابق الواقع، ولكنه فقط يمكن أن يماثل بنية أحد التصورات الموجودة عن العالم فى الواقع الثقافى والفكرى.

يستمد غولدمان لدراسة العمل الفنّى فى منهجه النقدى من المرحلتين والأولى هي مرحلة فهم العمل الفنّى والإلمام ببنيته والثانية هي مرحلة التفسير التي يستخدمها غولدمان فى توضيح العلاقة بين بنية العمل الفنّى و البنية الاجتماعية - التاريخية للمجتمع.

موضوع الرواية

اهتمّ بطل الرواية رفعت إسماعيل وهو يمثل الطبقة الوسطى المتعلمة بنفى التقاليد والعادات الخرافية التي تمت ترسيخها فى نفوس المجتمع الريفى وعقوله وبمكافحتها بأسلحة العلم والمنطق. موضوع الرواية هو عودة رفعت إلى القرية ومواجهته بالمشكلة

التي تعاني منها قرية كفر بدر بوجه عام وأسرته وأخوه بوجه خاص. يسعى الكاتب أن ينقل للقارئ مدى ترسيخ وتأصيل الخرافة في نفوس المجتمع الريفى وعقوله من خلال نوع فنى جديد أى أدب الرعب. يستمد توفيق فى هذه الرواية من أسطورة النداهة وهى من الأساطير الريفية المصرية التى تكون أكثر إنتشارا فى المجتمع الريفى لنيل غرضه. أسطورة النداهة تروى لنا مدى تأثير الخرافات فى عقول الناس وكيفية الإستغلال من هذه الخرافات لمراوغة الناس. إنها تسلط الضوء على جزء من العادات السلبية التى شاعت فى المجتمع المصرى فى أيام تعرّف المصريون على التطورات العلمية العالمية.

شخصيات الرواية

تعتبر الشخصية عاملا حاسما فى تكوين النص الروائى كما تضيفه على الأحداث من حركية وتشويق فقد يستطيع الروائى أن يتخلص من الحبكة أو من بعض العناصر الأخرى لكنه لا يستطيع التخلّى عن شخصيات عالمه الروائى، لأنها أساس وجود الرواية ككل، فهى نبض النص والحركة المتحدّة التى تسرى فى شرايينه، لا يستطيع تجاهلها أو حتى تجاوزها بأى حال من الأحوال. (صحراوى، ١٩٩٩م: ١٥٤) يؤكد جورج لوكاتش ولوسيان غولدمان على علاقة البطل الروائى بالعالم الذى يعيش فيه، فقد ذهب جورج لوكاتش بتنظيراته التى حاول تطبيقها على بعض الأعمال الروائية ذات الطابع العالمى كرواية "مدام بونارى" والتربية العاطفية لفلوير، ورواية "دون كيشوط" لسوفانتوس وغيرها من الروايات إلى الربط بين تلك الأشكال الروائية ووجود بطل روائى أطلق عليه اسم البطل الإشكالى الذى يقوم بالبحث عن قيم أصلية فى إطار مجتمع يخلو من تلك القيم مؤكدا بان عالم الرواية يقوم أساسا على التناقض بين عالم القيم الإنسانية المثالية الثابتة وعالم الواقع التاريخى المتغير، وهو ما جسده حقيقة شخصيات الروايات العالمية الشهيرة التى عرفها بقوله: «إنهم أناس جاؤوا ليتعلموا الفارقة بين عالم المثل وعالم الوقائع التاريخية.» (بوعلى، ٢٠٠١م: ٢٢٦)

تزرخ رواية أسطورة النداهة بالشخصيات المتحركة والمساهمة فى تفعيل حركة

العمل الروائي بكل مستوياته الفكرية والفنية، حيث تصادف أسماء علي قدر واضح من التميز والاختلاف، مثل: الدكتور رفعت إسماعيل، أم رفعت، رثيفة، رضا، نجاة، الدكتور عاصم فتحى وعواطف.

نجد فى رواية أسطورة النداهة نموذجين متناقضين أحدهما يمثل رفعت والذى يقدم لنا صورة لواقع الرجل النموذجى داخل المجتمع المصرى، وهو يمثل لنا نموذجاً لطبيب مثقف وواعى يسعى لإثبات الحقائق ولمساعدة مجتمعه الريفى، بينما يعكس النموذج الثانى العالم الشرير الذى يمثله عاصم، هذا الطبيب العالم والذى يحاول الانتقام لنفسه من عقده النفسية مع النساء، وأيضاً الانتقام من ذلك الفارغ المكانى الخائى الذى أملت عليه مقتضيات الحياة والمتمثل فى حاجته إلى الانتقام من فشله العاطفى والمهنى عن الريفيين. رفعت إسماعيل: طبيب أعزب فى السبعينات من عمره يروى ذكرياته عن سلسلة من الأحداث الخارقة للطبيعة التى تعرض لها فى حياته. يصف رفعت إسماعيل نفسه بأنه حالة فريدة من النحول واعتلال الصحة. يدخن بشراهة، ويستخدم دائماً حبوب النيتروجلسرين بسبب حالة قلبه الواهنة. ويعانى من الربو وضيق الشرايين التاجية والقرحة. يمتاز بأنه ملول وعصبى، ويميل إلى انتقاد الآخرين وتصنيفهم. يبدو من خلال مواقفه العديدة أنه رجل قوى ومتحرر وذات شخصية رجولية، تعكس مواقفه رفضه الشديد لأعمال الأصوليين اللإنسانية وتقاليد المجتمع الجائرة فى كثير من الأحيان. يسعى أن يرى الأحداث من منظور العقلية إستناداً إلى الواقع وحل المشاكل التى واجهتها أقرباءه.

عاصم فتحى: الطبيب المقيم فى كفر البدر وفى الخمسينيات من العمر، يعمل فى الوحدة الصحية فى القرية وله أيضاً مختبر سرى يختبر فيه ضحاياه الريفيين. عاشق مجنون للحياة، متزوج، غير واثق من نفسه، متذبذب ويلفه الغموض، لا يحصل على كل ما يتمناه ويسعى لذلك، لا يتقبل الخسارة، لا يثق فى أحد وبالأخص النساء. تزوج بعواطف ولكن حبه لها غير صادق، استحوذت عواطف علي سره الذى صانه منذ أمد بعيد ولم يبيح به لأحد.

عواطف: زوجة عاصم وصديقة وقيّة لزوجه وتعمل معه لخداعة الناس والإستغلال

من معتقدات الريفيين عبر أسطورة النداهة ولكن في نهاية المطاف تدرك أنها أيضا ضحية زوجها وتطلق سراح رفعت من مختبر عاصم.

رضا: هو أخ رفعت وأصيب بمرض مجهول ولكن ترى أمه وزوجته نجاة أنه لبي نداء النداهة وصار مجنوناً. يسعى رفعت أن يزيل الغموض من مشكلة أخيه ويدخل في لعب خطير وفي الأخير يفهم المشكلة.

أم رفعت: امرأة ريفية بكل أوصافها. ظهرت في أسطورة النداهة كأم مكلومة بعد أن ندهت النداهة ولديها رضا ورفعت، كما أنها تخشي أن يكون رفعت قد تغير أو تكبر، وتحاول تزويجه لتطمئن عليه دون فائدة.

رثيفة: أخت رفعت وهي امرأة ريفية وتلتزم بعبادات وتقاليد الريفيين وتسعى ألا يدخل رفعت في فخ النداهة لأنها تؤمن بوجودها.

نجاة: زوجة رضا وهي لا توثق برفعت ورفعت في نظرها رجل غبي عاد من المدينة ولا يفهم الريف والريفيين ولذلك تكرهه كثيراً.

البنية الدلالية للفكرة في النص الروائي:

إن هذا العنصر في الدراسة يتناول دراسة للبنى الدلالية للفكرة (الوعي) في الرواية باعتبارها مكوناً دلاليًا إيديولوجيًا يتم فصل في ثنايا النص الروائي، كما يعد مكوناً جمالياً يساهم في بناء شعرية النص الروائي، تخترقه كعنصر فني يفرز أفكاراً ورؤى متعددة ومتصارعة وهذا التصادم يعد قضية جوهرية تساهم في بناء عالم النص الفني بموازاة العالم الواقعي. إن فنية النص الروائي تلعب دوراً هاماً في تشكيل يساهم في دفع حركة الأحداث في النص يلجأ إليه الكاتب باعتماده علي عناصر: «الحجاج والاقناع التي تحاول التأثير علي المتلقي» (مسعودي، ١٩٩٩م: ٢٧٣) وتدفع كذلك القارئ لخلق أفق انتظار لفكرة ما أو رؤية معينة. كما قد يترك الكاتب كل هذه الأفكار تتمتع بنفس الحضور وبالقدرة الاقناعية التي تحملها في النص.

بنية الفكرة بين الوعي الكائن والممكن:

إن تحديد الكيفية والطريقة التي من خلالها عرضت الفكرة في النص يعتمد أساساً

علي التركيز علي عناصرها اللغوية الدلالية لأن القيام بعملية تصنيف الفكرة ضمن العمل الروائي، قد لا يعنى أن النص الروائي متبن لفكرة واحدة بل علي العكس من ذلك فقد نعثر في ثنايا النص الروائي علي زخم معتبر من الأفكار المتصارعة التي يقتضيها التشكيل الأسلوبى من أجل بناء جماليته. لقد طرح (غولدمان) في كتاباته النقدية، جملة من المفاهيم السوسولوجية، والتي تنبنى عليها المقولات الأساسية في منهجه البنىوى التكويني، والتي تتمثل في: البنية الدلالية، الرؤية الكونية، الوعى الكائن والممكن. فهذا الأخير وثيق الصلة بالبنية الفكرية فى المجتمع، كما يمثل التصور الحقيقى للعلاقات الانسانية، وقد يرقى أحيانا إلى تجاوز الواقع والسمو به إلى آفاق فلسفية تؤسس للوعى الجمالى مشروعيته فى صورته الفعلية فى المجتمع. إن الوعى على رأى غولدمان هو «مظهر معين لكل سلوك بشرى يستتبع العمل». (غولدمان، ١٩٨٢م: ٢٥) فالوعى الممكن علي حد قول (غولدمان): «ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقي» (شحيد، ١٩٨٢م: ٤٠)، أى أنه ذلك الوعى الذى من خلاله تتغير حركية الطبقة الاجتماعية بعد تعرضها لمتغيرات مختلفة دون أن تتخلي عن انتمائها الطبقي، إنه ذلك «الوعى الشمولى القادر علي تغير التاريخ، ولن يتحقق هذا إلا بفعل عبقرية الأديب الذى يستطيع أن يعبر عن رؤية العالم لطبقة معينة... وهذا الممكن هو رؤية العالم.» (صالح، ٢٠٠١م: ٢٥٥) بمعنى أنه ذلك المستوي من الوعى الجماعى الضرورى الذى تتبناه طبقة واعية وفاعلة وطامحة للتغيير. لكن تبقى هذه الطبقة أحيانا بعيدة عن تجسيده وتحقيقه، لأنها تعيش تحت سيطرة فكر آخر، هو فكر الايديولوجية المهيمنة التى تخفى حقيقة الواقع بالنسبة للطبقات المستغلة، والتي تعيش علي الوهم الفكرى للطبقة المسيطرة ومن هنا تلجأ هذه الطبقة للرضوخ تحت تأثير الواقع فيصبح تفكيرها «ناجم عن الماضى بمختلف أبعاده وظروفه وأحداثه، بما تسعى كل مجموعة اجتماعية لفهم واقعها انطلاقا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية» (المصدر نفسه) من هذا أو ذاك، تتجلي العلاقة التى تربط بينهما، باعتبار أن الوعى الممكن ينطلق من تجاوز الواقع اليومى بالاتجاه إلى التطابق الجوهرى بين المستوي الطبقي والتطلعات المستقبلية، أما الوعى الكائن، فهو منحس فى الواقع

ولا يتعداه بل ويستنجد بالماضي كما أنه متفوق علي نفسه، إنه ذلك الوعي الجمعي الذي يمتلكه كل الأفراد سواء كان فكرهم سائدا أم مسودا بحيث لا يمتلك الأفراد القدرة الكافية في تكوين رؤية مستقبلية، تجعل الأفراد يخلقون منظورا وهميا بسيطا، بالاعتماد علي الماضي وسياق العلاقات الاجتماعية المتحكمة في دوايب الحياة اليومية.

يتأسس خطاب رواية "أسطورة النداهة" علي نمطين متقابلين من أنماط الوعي الممكن بحيث كل منهما يبنى علي خلفية خاصة، وعلي انتماء فتوى خاص داخل الطبقة بحيث تنقسم هذه الفتوى إلى شكلين، ففي الشكل الأول نسجل اديولوجية التغير والاصلاح في المجتمع الريفي وأيضا مواكبة التطورات التي حدثت في العالم العربي بفضل التطورات المتسارعة العالمية التي تتبنى أفكار البطل (بطل الرواية) وهو الذي يمتلك فكرا إصلاحيا للمجتمع الريفي و الطامح إلى تجسيد رؤاه في الواقع انطلاقا من إشارته لمنطلق تغير العلاقات الاجتماعية في المجتمع الريفي المصري. أما النمط الثاني من الوعي الممكن فنسجله في الحضور الفكري الذي تبنته الشخصية الفاعلة الأخرى أي عاصم، وذلك بوقوعه في وجه المجتمع المدني وذلك بالمحافظة قدر المستطاع علي هذا الوضع الاجتماعي المتدني، والغارق في سراديب الرداءة وهذه النظرة لها بعد يتمثل في ضمان استمرارية قضاء المصالح الشخصية، وبسط أشكال الهيمنة من خلال استغلال العادات وتقاليد المجتمع البدوي وتوسيع دائرة المصالح ومن ثم المحافظة علي الملكية المادية للأفراد الحاملين لهذا الوعي.

إن تجليات الوعي الممكن في سياق فكرة التغير والاصلاح تتمظهر عبر قصة البطل "رفعت إسماعيل" الحامل لرؤية شمولية للواقع ومن خلال تتبع هذه الشخصية المحورية في الرواية التي عند التعمق فيها نجد أنفسنا وصلنا من خلالها إلى واقع عام قصده الروائي بنصه وادراك العلل والخلفيات المستترة، فشخصية البطل "رفعت" باعتباره طبيب مثقف ومناضل واجه في وجه تخلفات المجتمع الريفي واستعان بمنطق علمي لتفسير الأحداث الغريبة. وهذا ما يدل علي ايجابية الوعي الذي يحمله البطل. وهو علي ظهر الجمل: «هناك شيء واحد أعرفه .. أن واجبي هو أن أجلب بعض زملائي من أساتذة الجامعة ليروه.. وأنا واثق أنهم سيجدون مصطلحًا لاتينيا من عشرة أحرف علي

الأقل يسمون به هذا المرض.. وسيصفون بعض الأقراص والحقن تعيد أختى إلى حالته الأولى.» (توفيق، لاتا: ٢٣) توفيق يسعى أن يرى الأحداث من منظور العقلية إستناداً إلى الواقع وعلى هذا، رفعت قام بمواجهة خرافة النداهة على المنطق والسعى إلى كشف التفسير العلمى لهذه الظاهرة؛ لأنه لم يصدق أى شىء إلا بوجود المنطق العلمى؛ من ثمّ عندما واجه رفعت بمشكلة أخيه رضا، طلب من زملائه أن يفحصوه. هذه من مظاهر الوعى لدى البطل أو الشخصية المحورية عند تذكر لمشكلة أخيه وتساؤله عن أسباب هذه المشكلة، فدافعت لذاكرته الصور المزدحمة قريبة ومشرفة وتضربه فكرة استعانة المنطق العلمى، فتلتبس عليه بما يراه ويسمعه وما يحسه. إن إطار الوعى الممكن المبنى على فكرة التغير وذلك عن ريق استعانة المنطق العلمى الذى تبناه الكاتب "أحمد خالد توفيق" على لسان الشخصية المحورية "رفعت"، تفرز قراءات نقدية تصحيحية لأخطاء قد ارتكبت فى فترة زمنية ما، مردها رداءة وقذارة الواقع وكذا الوعى التلقائى الذى تميزت به بعض الفئات الاجتماعية الأخرى، فالوعى الذى يتمتع به البطل جعله يرجع أسباب المعاناة الاجتماعية والتخلف الاقتصادى والثقافى إلى هشاشة وسلبية وعى الفئة السائدة فى المجتمع. ونتيجة لهذا الاستقراء الاجتماعى فى الرواية، فإن جوهرية الفكرة تتمثل فى العمل وفق منظور ايدولوجى يؤمن بالتطور والسيرورة التاريخية للمجمعات كقيمة مركزية ترسم ملامحها فى الحياة اليومية للمجتمع المصرى. إن تجليات الوعى الكائن والممكن، تظهر من خلال منهجية التفكير وكذا ردود الفعل المختلفة للفئات المجتمعية فى مواجهة الطارئ والمجدد، إضافة إلى عدم تحديد الرؤية لقضايا متعددة ومختلفة المشارب، فعن هذا ينتج تصادم واضطراب للبنية الفكرية الناتج عن تضارب الأفكار فى الفئات المجتمعية و عدم قدرتها على تحديد رؤية شاملة ضمن حركية الفعل الاجتماعى فى المجتمع المصرى.

رؤية العالم فى الرواية:

الكتابة تعيين و تحديد و مداخله فنية فاعلة، إذ أنها تقوم بحجب الأيدولوجية التى هى «إحدى العناصر المكونة للنص الإبداعى موازيا للنص ذاته ببناء الخارجية و

الداخلية، ومن ثم فالتركيز الوظيفي علي الأيديولوجية التي تحدد اتجاهها إنسانيا معين، يصبح غير مجد ما لم تكن الوظيفة الجمالية سابقة الوجود، وبذلك يستطيع العمل الفني أن ينقل القارئ من موقع جمالي ثابت إلى موقع متغير ذي قيم فنية جديدة، وبذلك تحدث الوحدة العضوية بين الشكل و المضمون في مستوياتها المتداخلة لأن كل نص هو ثمرة المخيلة، و هو يولد بحالة تنازع مع الواقع في سعيه لتعريفه و قبض جوهره و الإبانة عن أيديولوجيته في حالة الرفض أو القبول و ندرك مدي فعالية أدواته في فهم و تحليل الواقع و البحث عن سببية العلاقات الاجتماعية، أي أنها تنفذ إلى باطن هذه العلاقات حتى تتعرف علي الآلية التي تسيرها أي أنها ترصد شكل المستويات الاجتماعية، المحكوم ببنية اجتماعية محددة، و المحكوم بممارسات اقتصادية و سياسية و إيديولوجية صادرة عن تحالف طبقي معين.» (مشري، ٢٠٠٠م: ١١١-١١٢)

يقدم غولدمان تعريفا لمفهوم رؤية العالم قائلا: «إنه التقدير الاستقرائي التصويري إلى أعماق مدي التحام الأحاسيس المتحركة لأفراد فئة اجتماعية ما، و مجموعة مترابطة من القضايا والحلول التي يتم التعبير عنها علي المستوي الأدبي عن طريق الإبداع، بواسطة الألفاظ و بواسطة كون محسوس من المخلوقات والأشياء.» (غولدمان: ٢٠١٠م: ٣٤٩)

و الروائي أحمد خالد توفيق في روايته "أسطورة النداهة" يحاول أن يجسد مرحلة من تاريخ المجتمع المصري، لأنه شاهد علي تحول اجتماعي في فترة السبعينات وثمانينات من القرن الماضي التي عرفت بسياسة انفتاح الدولة المصرية أمام العالم والتي امتازت بوجود الأنظمة السياسية المستبدة و من ثم شيوع ظاهرة ميديا و الزحف إلى العولمة و الكثير من الأحداث التي عرفتها هذه الفترة، فالرواية مؤشر لمرحلة جديدة، إذن فهي تقدم رؤية للعالم - في تلك الفترة - التي هي تعبير عن إشكالية ملموسة علي مستوي التخيل و الواقع تحدها بنية متوفرة علي شخصيات و أفعال و علائق و لغات، إلا أننا حينما نقرأ "أسطورة النداهة" نشعر أحيانا بحضور الرعب، لكن في أحيان كثيرة نلاحظ غياب كلي له، فنشعر بوجود أحداث روائية تبحث عن مبررات واقعية تبرر كل الأحداث. على سبيل المثال: «إنهما هنا.. و على الفراش كانا.. هي ساقطة على ركبتيها

ووجهها مدفون في الملاءة كأنها تبكى بينما هو راقد على ظهره مفتوح العينين ونظرة ذاهلة ترمق السقف...، وعلى الأرض انتشرت أفراس (الدونوليز).. لقد تناولا جرعة قاتلة من دواء السكر أدت لقتلهما على الفور.. «(توفيق، لاتا: ١٢٣) في نهاية الرواية كان عاصم و عواطف قد انتحرا بسبب الخوف والهروب من العقاب واليأس والإحباط النفسى الذى كان قد سيطر عليهما فى الأخير. الانتحار رد فعل تراجيدى ومأساوى لمواقف الحياة المجهدة وهو أمر شائع فى المجتمعات المدنية. وبما أن الرؤية الواضحة، تمكن الكاتب من إدراك وفهم الواقع الاجتماعى، والقبض على حركته، للكشف عن المتناقضات وتعريفها فإن الوعى -دون شك- أداة فاعلة يكتسبها الإنسان من ذاته وواقعه الطبقي، لأن «كل حدث اجتماعى يستدعى فى بعض جوانبه عملية وعى، وإن كل وعى هو أولا تصور يتطابق نوعا ما، مع هذا الجانب من الواقع أو ذاك... وأن البحث فى تطابق هذا التصور مع الواقع يقتضى نظرة اجتماعية شمولية.» (مشرى، ٢٠٠٠م: ١١٢) ورفعت فى الرواية يمتلك تصورا فعليا للواقع، فهو ليس مجرد أداة فى يد الكاتب، إذ نجد أن كل الأحداث التى يقوم بها "رفعت" مبرر فنى، لأنه قد لعب دورا بارزا فى بداية الرواية وفى نهايتها أيضا وذلك مع مقدمات منطقية.

يبدو من الرواية أن رفعت فقد بقى متمسكا بالحق والحقيقة بالرغم من وجود كل تلك المشاهد التى كانت تحيط به محاولة إغناءه بوجود النداهة، إلى جانب كل هذا فقد تمكن أيضا من التخلص من سيطرة عاصم و عواطف، وفك اللغز الذى ألقاه عليه، واستعادة نفسه بعدما فقدته وهى تهيم فى العالم السحرى الذى وضعه فيه عاصم، والذى أبهره بسحره، وقد تمكن فى النهاية من التخلص من الأغلال التى كان يقيد بها هذا الرجل، بالرغم من أن ذكاء رفعت لعب دورا كبيرا فى هذا بداية باستغلال مشاعر عواطف والتحدث معها ثم إغناءها بأكاذيب قالها عاصم لها. «وهنا خطرت لى فكرة .. الوتر الوحيد الذى يمكن أن ألعب عليه هو مشاعر الأثنى.. لهذا قررت أن أستغل ما أعرف: - (عواطف)!.. هل أنت واثقة أن (عاصم) يحبك..؟ أن الدكتور عاصم لا يحبك .. بل هوى يرى أن زواجه منك أحد أسباب كراهيته لهذا المجتمع .. أنت إحدى علامات هزيمته وهو لن يغفر لك هذا.. ألم تتصفحى أبدا كراسة مذكراته؟! أنا رأيتها .. ووجدت

بها قصائد شعر ورسوما وحديثا عن فتيات كثيرات أحبهنّ قبلك.. وبعد ربع ساعة عادت عواطف لى والدموع فى عينيها وثمره شىء ما فى قبضتها.. وصاحت وهى تنهاتف وأنفها يسيل: - ذلك السافل!.. الملعون! أنه لم يتزوجنى إلا لأنى أشبه حبيبته الأولى.. وهنا مدت يدها فى عصبية بالشىء الذى كانت تخفيه .. فتاح صغير صدئ أولجته فى قفل القيود وشرعت تفكها فى جنون.» (توفيق، لاتا: ١٢١-١٢٢) ففى الرواية نلاحظ وجود ذلك التفاوت الاجتماعى بين شخصين من طبقة واحدة وهما رفعت وعاصم ورفعت كان مدرك تماما لذلك التناقض الموجود بينه وبين عاصم. فنجده أحيانا فى حالة تأقلم وتكيف مع عالمه، والقيم وعلاقاته تختلف جذريا عن القيم وعلاقات عاصم والأخير يسعى مواجهة مجتمعه وطبقته الاجتماعية. ويبقى عاصم مرتبطة بحلمه لصنع أنسان السوبرمان، وهو مرتمى فى أحضان جريمة، ورغم كل هذا، فإنها استيقظ فى النهاية من حلمه هذا وغادر سحابة الأحلام وقام بالانتحار للتخلص من إحباطه النفسى. فالوعى قد برز فى ظل هذه الظروف، فقد كان حاضرا وفاعلا فى الواقع، ونجد رفعت فى مواقع أخرى تكشف عن تذبذب فى الموقف والرؤية. لكن فى النهاية أدرك واقعها بعمق وبنظرة ثاقبة.

تأثير البنية التحتية الاجتماعية والسياسية على الوعى الجماعى

يؤكد لوسيان غولدمان على دور البنية التحتية السياسية والاجتماعية فى تشكيل عمل فنى. وهو يقول: «تطور وعى كل مجموعة اجتماعية وهيكلها العقلى فى ارتباط وثيق مع عملها الاقتصادى والاجتماعى والسياسى داخل المجتمع، ولكن ليس هناك شك فى أن الوعى الجماعى هو خارج الوعى الفردى.» (غولدمان، ٢٠١٠م: ٧٠) وهو يعتقد أن الوعى الجماعى موجود كنوع من الواقع الممكن فى أفراد المجتمع. تعتبر العملية الاجتماعية، باعتبارها المحور الرئيسى لتشكيل رؤية العالم للكتاب، بمثابة حجر الزاوية لوعيهم الفردى.

ما يصور التاريخ المعاصر من البنية التحتية السياسية والاجتماعية لمصر فهو الحكومات الاستبدادية التى تستغل من الطاقات البشرية والتى تكافح من أجل البقاء

وتجاهل العديد من القدرات المحلية. و من هذا المنطلق بدأ أحمد خالد توفيق كتابة سلسلة "ما وراء الطبيعة" عام ١٩٩٣م أى أوائل تسعينات من القرن الماضى فى عهد الرئيس المصرى السابق حسنى مبارك. وجد الروائى المصرى فى عهد مبارك نفسه فى مواجهة مباشرة مع أنظمة مستبدة لم يكن بإمكانه الكتابة عنها بالنقد الواضح والمباشر، لذا «لا نجد فى روايات الثمانينات والتسعينات حوارات سياسية طويلة ومباشرة بين الأبطال، فى حين نجد مجموعة من الأساليب السردية التى وسمت إنتاج تلك المرحلة أبرزها اللجوء إلى الفانتازيا، والتجريب فى السرد، للحديث عن السجون والمعتقلات واستبداد السلطة وانعدام الديمقراطية.» (www.arab48.com) من جانب آخر شهد المجتمع المصرى بفضل سياسة الانفتاح التى تقرر فى عهد مبارك التطورات الكثيرة فى المجالات المختلفة. تزداد نسبة السكان فى المدن يوماً بعد يوم وتتصاعد وتيرة الطبقة الوسطى من الناحية الكثافة السكانية وبالتالي زادت المطالبات وحاجات هذه الطبقة من الرفاهية والمعيشية ووسائل الترف. «إن أزمة المجتمع المصرى فى ظل سياسات الانفتاح الاقتصادى و الحخصة إنعكست على الشخصية المصرية و هناك حالات من الفساد بأشكاله المختلفة، وشيوع حالة من عدم الانضباط على كافة المستويات والتسيب واللامبالاة وإزدياد أنماط من الجرائم لم يكن المجتمع المصرى يعرفها من قبل مثل جرائم المحرمات وجرائم المال، والنصب وغيرها. ويرصد علماء الاجتماع انعكاس ذلك على الشخصية المصرية فى ظواهر مثل العنف وثقافة الزحام وتفكك الأسرة وإعلاء القيم المادية واختفاء قيم التعاون والتسامح والتساند الاجتماعى وانتشار سلوكيات سلبية وانهيار الخدمات الصحية والعلاجية للفقراء وتدهور أحوال التعليم وزيادة معدلات البطالة بين الشباب.» (عبدالمجيد، ٢٠١٥م: ٣٧٦)

بعد الخمسينات من القرن العشرين تغيرت مظاهر المدينة فى المجتمع العربى وذلك بسبب هجرات هائلة من الأرياف إلى المدن، وقد نتجت عن ذلك مظاهر كثيرة ومشكلات نفسية واجتماعية. كان قد تفسى فى المدينة الأعمال الطفيلية التى لا تقبلها بنية المجتمع العربى كالتجارة بالأعراض، السرقة والاختلاس. (أبو عياش، لاتا: ١٢) «لم ينج المجتمع المصرى من رياح التغيير وما يلاحقه من موجات التطوير وكما هو الحال

في مراحل التحول الاقتصادي يشهد المجتمع أنواعاً من الحراك يتولد عنها مجموعة من الجرائم المستحدثة التي تعكس نوعية التغيير وطبيعته. «(محمود، ٢٠١٤م: ٥٥) يبدو أن تتعكس بعض القضايا التي تواجهها المجتمع، وخاصة المجتمع الريفي المصري، الأكثر في الأنظمة الاستبدادية والجائرة التي تعيش فيها الكاتب؛ لأن الإنسان، إن لم يكن قادراً علي التعامل مع الحتمية والأقدار، يرسم هذه المخاوف في ذهنه ويعرضها كعمل أدبي.

بالنسبة للريف المصري، فيجب القول إن نظام مبارك عمق من الآثار السلبية التي انتابت الريف، فلم يتحرك لتخفيف حدة الفقر، وشكل سوء توزيع في الأوساط الريفية عنصراً مهماً في تسخين الاحتقانات الاجتماعية التي تصاعدت لدرجة لم تفلح معها مسكنات حكومات مبارك المتعاقبة في إخمادها أو حتى تهدئتها. «كان الفقر في مصر في الأساس ظاهرة ريفية ومن ثم كان أول من يتبادر إلى الذهن عندما تثار مشكلة الفقر في مصر هم «فقراء الريف». كان ٨٠٪ من سكان مصر يعيشون على الزراعة، غالبيتهم العظمى في فقر مدقع، ويتكونون من صغار مستأجرى الأرض والعاملين في الزراعة بأجر يومي». (أمين، ٢٠١١م: ١١٤)

على الرغم من سياسة الدولة المصرية منذ عهد الرئيس المصري المنتهجة الرامية إلى إقرار سياسة الانفتاح والبرنامج الخاصة، إلا أنه كان الوضع عكسياً «والمخفض الدخل بالنسبة للفلاح نتيجة لعدم قدرة الزراع على توفير التسميد بأنواعه المختلفة والمبيدات الحشرية والتقاوى المحسنة وفتح باب الاستيراد للسلع والمنتجات الزراعية المدعمة في مصر من ناحية وصعوبة المنافسة في الأسواق الخارجية للسلع المصرية بسبب ارتفاع تكلفتها و تدهور مواصفاتها من ناحية أخرى مما أدى إلى زيادة العجز في الميزان التجاري». (أبومندور، ١٩٩٥م: ٦٨)

تحليل المجتمع على ضوء الرواية

رواية أسطورة النداهة هي قصة حياة البطل (رفعت إسماعيل) عندما عاد إلى قريته كفر بدر وعاش مع أهله والريفيين لمدة لم تتجاوز شهرين. خلال هذه الفترة، شاهد

رفعت سوء المعيشة والحرمان الذى ظل على قريته من جهة ومن جهة أخرى مظاهر التخلف الفكرى والحضارى فى مجتمعه الريفى وبالطبع ذلك مرتبط جزئيا بوجهة النظر السردية لرفعت. تبدأ الرواية فى ستينيات من القرن الماضى، حيث وصل رفعت إلى قريته بسيارة أجرة و يروى مشاهداته عند الوصول إليها. «قريتي العجوز الطيبة حيث كانت طفولتي ومراهقتي قبل أن أنتقل إلى القاهرة كى أدرس الطب وأقيم هناك.. لم يتبدل شىء.. البيوت الطينية .. الساقية.. المسجد الذى تأكلت جدرانها.. التربة الراكدة.. النخلة المائلة فوق حائط الكتاب.. الأطفال الحفاة يلعبون ألعابهم البدائية وقد تدلى المخاط من أنوفهم...» (توفيق، لاتا: ٧) هذه القرية توسم بكل أوسام الأرياف المصرية فى القرن الماضى. كل شىء فى هذه القرية يشير إلى حالة البؤس والشقاء والحرمان. لم يعد بمقدور المصرى الذى يعيش فى الأرياف، العيش كغيره مرتاح البال، فقد سلبوا منه الحياة الكريمة ولقمة عيشه. فمظاهر المحقرة هذه جعلت الكثيرين يفقدون صوابهم، لعلمهم بذلك ينسون واقعهم فلا يرون ما حولهم، هذه هى طبيعة الريفى الذى لا يتحمل أن تهان كرامته و يداس عليها. تبدو الرواية لوحات لحياة هذا الفضاء الريفى ويوميات أهله ومعتقداتهم وقيمهم وكتابة لصراع الفلاحين والريفيين مع الحياة وآفاتهما. فى المجتمع الذى يصفه توفيق، ليس كل من يراه بطله على ما يرام حتى الأبنية والسيارة التى وصل رفعت بها إلى القرية. «كنتُ أنا فى سيارة أجرة .. واحدة من تلك السيارات العتيقة التى لا تصلح إلا للسقوط براكيها من الفلاحين التعساء فى التربة.. وعلى جانبى الطريق يتوقف الفلاحون عن العمل فى حقولهم ليروا ما هنالك وقد ضيقوا عيونهم من أثر الغبار والعرق...» (توفيق، لاتا: ٧) يترصد الكاتب العائلات التى تقطن هذه القرية وتعمل فى حقولهم ليجدوا لقمة عيشهم و بهذه الطريقة تبدأ القصة. تهدف بنية الرواية وأفكار رفعت دوما إلى توضيح حقيقة حياة الريفيين و كيفية معيشتهم.

على جانب موضوع الحرمان والفقر، يسعى توفيق فى روايته على تصوير مدى حضور الخرافة فى المجتمع الريفى عن طريق تمثيل مشكلة واجهها بطل الرواية. يسعى الكاتب فى ثنايا الرواية تصوير مدى تأثير الجهل فى أذهان الناس ومن هذه النقطة يروى رفعت مما يشاهده بعد أن يلتقى إلى الشخص الذى أصيب بمرض الكلب ولكن

يعتقد أهله أنه لبي نداء النداهة. يكون التصوير الذي يرسم رفعت بهذا المشهد المأساوي صادمة. «مددتُ يدي لمعصمه لأقيس نبضه فوجدت شيئاً مروّعاً. حبلٌ من الليف حول معصمه يثبتني إلى وتد خشبي مدقوق في الأرض، لقد قيّدوا هذا الفتى كحيوان مفترس كي لا يفرّ وبها لها من فكرة...» (المصدر نفسه: ٣٨) رفعت يقوم بفحص المريض ويشاهد آثار الأنياب في بطنه وهكذا يفهم أنه أصيب بمرض الكلب: «واصلتُ فحص الفتى... وعريّتُ عن بطنه فوجدتُ شيئاً ما.. آثار أنياب موجودة على جلده.. هكذا بدأتُ أفهم ما هنالك..» (المصدر نفسه: ٣٩) الموت أمام المريض وتحذير رفعت أنه يحتاج إلى الدواء لم يقنع الناس لكي ينتقلونه إلى المستشفى وعلى هذا يواجه المريض شيئاً فشيئاً بالنهاية المؤلمة. «- ليس هذا نداء النداهة يا حاج.. -إذن ما هو؟ -إنّه مصاب بالكلب.. -الكلب؟ - نعم.. حيوان مسعور عضه في بطنه منذ بضعة أيام!... - يجب نقله فوراً إلى إحدى مستشفيات الحميات بالزقازيق .. -ولكن.. -فوراً.. إن حياة هذا الفتى بين أيديكم الآن. قال أحدهم في فظاظة وتحذير: لكن أمه سمعت النداهة يا دكتور.. التفتُ إليه في غيظ وصحّت: إذا اعتقدتم في وجود النداهة فهذا شأنكم، لكن هذا الفتى مسعور.. هل تفهمون هذا؟ .. ولن يعيش ليرى صلاة الجمعة القادمة! .. - والعمل؟ - سبحان الله!.. قلتُ لكم مستشفى الحميات! .. الواضح أنهم لن يأخذوه لأى مكان.» (المصدر نفسه: ٤٠-٤٢)

يحاول الكاتب من خلال هذه الصورة التي يعرضها على القارئ أن يشير مدى تغلغل الاعتقادات القديمة في المجتمع القروي وتأثيرها على حياة الناس. من ثم؛ حينما يصيب رفعت بالمرض، لم تلجأ رقيقة أخته، إلى الطبيب لتحسين حالة أخيها النفسية بل تتوسل إلى شعوذة. «أمّا رقيقة فقد أحضرت مشعوذاً - نصاباً كالعادة - كي يحاول فكّ اللعنة التي تكبلني وبالطبع أحرق مزيداً من البخور وردد عشرات الرقى وطلب مئات الطلبات ثمّ انصرف زاعماً أن هناك جنيّاً حانقاً على لأنّي لم أجلب له ما أراد من هدايا.» (المصدر نفسه: ٨٩) يوجد أيضاً الفقر الثقافي ونقص التعليم الاجتماعي السليم في معظم الناس في المجتمع الريفي وهؤلاء هم الذين يقعون ضحية لرغبات الآخرين. لذلك، من خلال خرافة النداهة نرى أن قوى الشعور والغريزة تغلب علي العقل والفكر. يعالج توفيق

التبعات السلبية للخرافة فى المجتمع الريفى والمشاكل الناجمة عنها معبراً عن التضاد ما بين العادات التقليدية والعلوم الجديدة والعواقب التى تحدث نتيجة لذلك بين القرويين. إن واحدة من أهم القضايا فى النقد الاجتماعى للرواية هى العلاقة بين العمل والطبقة الاجتماعية للمؤلف والتى تتأثر من وجهات النظر الطبقيّة. يتم تعريف الطبقة الاجتماعية على أنها مجموعة كبيرة من الأفراد الذين يشتركون فى الأساس الاجتماعى مماثل ولديهم وعى جماعى ولديهم أيضاً ثقافة فرعية معينة. تتميز كل فئة بمستوي معين من القوة والثروة والعظمة. فى الأمثلة العملية للنقد الاجتماعى من جانب لوكاتش وغولدمان وأتباعهم، يعتبر الاهتمام بالأساس الطبقي للمؤلف وعلاقته ببنية العمل الأدبى وتشخيصه جزءاً أساسياً من التحليل الاجتماعى للنص. إن دراسة نهج العمل الفنى الذى يرتبط بالأساس الطبقي للمؤلف لها أهمية جلية؛ بمعنى أنه يمكن للمؤلف أن يرسم صورة واقعية لهذه الفئة ويعكس آلامها واحتياجاتها بسبب المشكلات الأرسقراطية للمؤلف. ومن هذا المنطلق يسعى توفيق عبر خلق الشخصيات المحورية الأخرى مثل الدكتور عاصم الذى يكون رمزاً لعصيان التكنولوجيا أن يعكس القلق السائد فى الطبقة الاجتماعية التى ينتمى منها وهى الطبقة الوسطى. يعرض توفيق فى أسطورة النداهة العلاقات الفردية قائمة على المنفعة الخاصة لدى الدكتور عاصم ومن ثمّ استغلّ الدكتور عاصم وزوجته من الخرافات والعادات السائدة فى المجتمع الريفى لنيل أهدافهما باللجوء إلى النداهة، الأسطورة المتداولة فى الأرياف المصرية. «فى الليل ترددى عواطف ثياب النداهة الفسفورية وتقف عند بيت الضحية وتبدأ باسمه.. أن أحداً لن يجرؤ أبداً على الخروج لمضايقتها.. وكنتُ أزور الضحية صباحاً فأعطيه جرعة صغيرة من الباربيتورات ليظل وعيه فى حالة السبات، إننى الوحيد فى القرية الذى له الحق فى إعطاء حقن لا يعرف نوعيتها أحد للمرضى...» (توفيق، لاتا: ١١١)

عاصم هو طبيب يحاول أخذ الثأر من العالم بسبب الإخفاقات والإحباطات التى واجهها طوال حياته. إنه رمز للطبيب الفاشل الذى وصل إلى مرحلة الجنون. هذه الإخفاقات والإحباطات تعود إلى رؤيته الخاصة. عدم مطابقة الواقع للتوقعات التى يرسم عاصم فى مخيلته ما يسبب له خيبة أمل كبيرة حتى يصل إلى حالة الإحباط. إن تعرضه

لضغوطات من المجتمع المحيط ما يحول دون تحقيق ما يريد السبب الرئيس لحالته النفسية. «سلسلة طويلة من الإحباطات .. لم أوفق إلى الالتحاق سلك الجامعة ونفيتُ إلى هذه القدرة التي لا تناسب أحلامي وحتى في الحب.. حتى هنا لم أوفق .. كان رأسى الأصلع ونظارتى السمكية يعوقاننى عن الحصول على الفتيات اللواتى أرغبُ فى أن يشاركن حياتى، كلّ شىء فى الحياة كان يرغمنى على أن أكون ما أراده لى.. مجرد فأر أرياف منزو ومنعزل وفقير.. وحين أموت لن يذكرنى أحد ولن يبك على أحد.. وهكذا قررتُ أن أنتقم» (المصدر نفسه: ١١٠)

فالإحباط الناجم عن مصاعب الحياة، والضغوط المهنية، وإرهاصات حركة الحياة التى عادة ما يقف البعض عاجزاً أمامها، ولا يستطيع مواجهتها، وتجاوزها؛ لشعوره بالإخفاق عن التعامل معها - غالباً ما يسبب حالة الانكسار والانكفاء، ولعل إخفاق الإنسان فى تحقيق أهدافه رغم السعى الجاد لتحقيقها، ربما يكون من بين أهم الأسباب التى تجعل الشخص منعزلاً ومتوقفاً، ويعيش هواجسٍ سلبية مزعجة قد تضعه فى دوامة من القلق والتوتر وهذا من الميزات العامة للطبقة الوسطى فى المجتمع المدنى التى يعكسها توفيق عبر شخصية عاصم. ولعل من أخطر التداعيات السلبية للإحباط، أن يشيع لدى البعض اليأس والقنوط؛ حيث تسكن الهزيمة دواخلهم، لتنعكس عندهم فى أفكار انكفائية وأعمال انتقامية تبالغ فى جلد الذات، وتركز على اقتناص العيوب، وتضخيم السلبيات، وتثبيط عزيمة الآخرين، لنجد أنفسنا أمام مجتمع مُحبط ومُحبط فى نفس الوقت. من جهة أخرى قام توفيق فى روايته بإعكاس القلق والخوف من التطورات المتسارعة التى حدثت فى العلوم فى أواخر قرن العشرين وشاهده المجتمع المدنى المصرى عن كذب عبر وسائل الإعلام مثل تلفاز، فى شخصية عاصم فتحنى الطبيب الذى يكون نموذجاً لخطورة العلم وتكنولوجيا. وهذا يعود إلى القلق السائد فى القرن العشرين الذى شهد حروباً كبرى استخدمت فيها التقنيات والأسلحة التى دمّرت المدن، وأكّدت سطوة التكنولوجيا والعلم دورهما فى صناعة عالم القوة والسيطرة. لهذا يقول ألبرت كامو: «إذا كان القرن السابع عشر هو قرن الرياضيات، والقرن الثامن عشر قرن الفيزياء، والقرن التاسع عشر هو قرن البيولوجيا، فإنّ القرن العشرين هو قرن

الخوف..» (Camus, ٢٠٠٨: ٢٧) على رأى كامو أنّ الحضارة التكنولوجية بلغت أخيراً أقصى درجات الوحشية وعلينا أن نختار فى المستقبل القريب بين الانتحار الجماعى والاستعمال الذكى للاستكشافات العلمية. هذه الصورة أصبحت ملازمة لمسيرة العلم، خاصة بعد أن تمكن العلم، بفضل التطورات التقنية، من النفاذ إلى قلب المادة وقلب الكائن الحى والتحكم فيهما، مما يعنى القدرة على تغيير طبيعة الأشياء والأحياء. من ثمّ فتحى يستغلّ من علمه كوسيلة لارتكاب الجريمة والانتقام من العالم وهذا عكس القراءة الملعوفة من الطبيب الذى يستخدم علمه للسيطرة على الأمراض وعلاجها تماماً. يعانى الدكتور عاصم بسبب الإحباطات التى مرّت بحياته من المرض النفسى وهكذا قرر أن ينتقم من الناس ويهدد حياة الناس فى الريف بعلمه. «كنت أختار ضحيتى من زوار الوحدة الصحيّة، وكنت أفرد به فأحقنه بجرعة صغيرة جداً من "بتنوتال الصوديوم" .. إنهم يسمونه مصل الحقيقة لأنه يضعف الإرادة... وهكذا أبدأ نوعاً خاصاً جداً من التنويم المغناطيسى تحت تأثير الدواء..» (توفيق، لاتا: ١١٠)

يحاول الكاتب عرض آخر مستجدات عصره عبر الرواية وفى بداية التسعينات من القرن الماضى كان هناك مخاوف من إنشاء جيوش مستنسخة باستخدام تقنية الاستنساخ، وكانت المخاوف تنصب حول فيما إذا خرجت هذه الترسانة البشرية المستنسخة والتى لا تحمل بداخلها أيّاً من المشاعر تجاه أى شىء حتى الوطن أو البلد الذى يحاربون من أجله. القلق والخوف البشرى من استخدام التكنولوجيا ناجم عن التغييرات التى يمكنها أن تؤثر وبشكل طويل على حياتهم وعاداتهم الاجتماعية مثل الخصوصية الشخصية والتجسس وطبيعة العلاقات الاجتماعية التى تربطهم ببعضهم. يسعى عاصم لخلق إنسان أعظم عبر تغيير الجينات واختباره بالأمراض المختلفة حتى تزداد قوته بشكل صارم؛ أمّا عاصم فهو أصيب بما يسمونه جنون العلم وهو يخربّ حياة الناس لنيل مراده. «إنّنى أحاول صنع الإنسان السوبرمان لهذا أعرضهم لمؤثرات شتّى من الإجهاد الحرارى والسموم والباكتريا.. إنّ قوة تحملهم تزداد يوماً بعد يوم وعمّا قريب لن يؤذيه شىء..» (المصدر نفسه: ١١٥)

الإجراءات التى قام بها عاصم فى مختبره السرى تتداعى إلى الأذهان إسم الطبيب

النازي الشهير "يوزاف منغليه" الذي عرف بملك الموت. كان منغليه مثلاً نموذجياً عن "العالم الشرير" والذي عرف بتجاربه في معسكرات الاعتقال، وبالتركيز على التوائم، الذين كانوا في الغالب من اليهود أو من غجر الروما. على اعتبار اهتمامه بدراسة علوم الوراثة، تسبب الطبيب منغليه بأعمال وحشية قبيحة، كاستئصال الأعضاء من الضحايا من دون تحذير، وحقنهم بالمواد البكتيرية المميتة وبتز الأعضاء وغيرها من هذه الممارسات. «رفعتُ وجهي في هدوء لأرى ما هناك .. كنتُ قد فقدتُ نظرتي لكنني لم أكن قصير النظر إلى هذا الحد الذي ينعني من تبين تلك الأجساد الآدمية نصف العارية المقيدة إلى الجدران من حولي.. كانت هناك أربعة أجساد لرجال في العقد الثاني أو ثالث من العمر وأحدهم أقرب لسنِّ المراهقة كلهم مقيدون للحائط.» (المصدر نفسه: ١٠٧)

من هذا المنطلق يمكن القول إن الكاتب قد دخل في الأدب العربي نوعاً أدبياً جديداً سُمي بالرواية "الطبية المثيرة" (Medical Thrillers) وهو نوع أدبي يستغل العلوم الطبية كوسيلة لارتكاب الجريمة. في هذا الجنس الأدبي، الكاتب يروي عن جرائم القتل الجماعية المريعة المرتكبة من الأطباء التي تعاني من الأمراض النفسية أو يروي الكاتب من الأمراض الغامضة الفتاكة التي تمكن أن تفشى في المجتمع البشري وتهدد حياة الانسان بالموت.

فضح زيف الادعاءات التي كان يطرحها عاصم بعد أن تلقى رفعت نتائج عينات الدم التي أرسلها إلى القاهرة لاختبارها. علاء عبد الصمد تلميذ رفعت أرسل رسالة له وقال فيها عن نتائج عينة الدم التي أخذها ليحللها في معمله بالقاهرة. «قمتُ بإجراء تحليل كروماتوجرافي في كلية الصيدلة بحثاً عن سموم معينة وبعد بحث مدقق مرهق وجدنا في العينة نسبة ضئيلة جداً ولكنها محسوسة من مادة الباربيتورات.» (توفيق، لاتا: ٩٢) أما النهاية فهي مؤلمة بالنسبة لفتحي وزوجته عواطف وذلك بعد أن يكشف رفعت سرهما. فتحي وعواطف كانا يخافان غضب الناس ولايستطيعان أن يواجهوا غضبهم، فالهروب من العقاب لم ينفعهما وسيحضران أمام القضاء آجلاً أو عاجلاً وانتحرا بسبب الخوف والهروب من العقاب واليأس والإحباط النفسى الذى كان قد سيطر عليهما فى

الأخير. كان الانتحار رد فعل تراجمي ومأساوي لمواقف الحياة المجهدة وهو أمر شائع في المجتمعات المدنية.

يعتقد غولدمان أن الفنانين الكبار يحققون تماسكاً وتناغمًا شاملاً بينهم والمجتمع حيث أعمالهم هي مخطط من رؤية العالم الطبقي لعصرهم. إنه يشير إلى وجود علاقة جدلية بين الأنا الشخصي للفنان والأنا الاجتماعي له، ويعتبر أن الوعي الجماعي هو نتيجة الوعي الأسرى والمهنى والوطني والطبقي. إنه يرى الفاعل الجماعي المبدع الحقيقي للمنتجات الثقافية، وخاصة الأعمال الأدبية. من ثم، في الدراسات الاجتماعية، يتم طرح عناصر ذات مغزى كظواهر اجتماعية بحتة بدلاً من الظواهر الفردية. لذلك، نظرًا لأن هذه العوامل تنشأ في المجتمع، فلا يمكن فهمها ووصفها بعيداً عن المجتمع والعلاقات الاجتماعية الشخصية. بمعنى آخر، كل ظاهرة فنية وأدبية لها مبدع فردي وتمثل الفكر وسلوك مبدعه، ولكن هذا لا ينفصل عن التأمل وتفكير الآخرين في المجتمع الذي يعيش فيه الفنان. لذلك، يتم النقد ودراسة الظاهرة الأدبية وفهمها من خلال علاقات الناس في المجتمع.

النتيجة

نظراً للهدف الرئيسي لدى غولدمان، الذي اعتقد أن هناك صلة بين عالم الأثر الأدبي للمؤلف والفئة الاجتماعية المحددة التي ينتمي إليها المؤلف، فإن رواية أسطورة النداهة هي أيضاً انعكاس لحياة المجتمع الريفي المصري في الستينيات. وتوفيق قام بتصوير رؤية العالم وموقفه الخاص حول الأحداث التي رآها في مجتمعه. يتبين مما ذكر أنه تناول في "أسطورة النداهة" القضايا الاجتماعية بصيغة أدبية وعلى الرغم أنه كاتب في مجال أدب الرعب والخيال العلمي ولكن قد تبين في روايته أهم المشاكل الاجتماعية في الأرياف المصرية وهي القضايا المتعلقة بالفقر والعادات الخرافية والحرمان من التعليم. يرى الكاتب أن إصلاح المجتمع الريفي يتم عبر توعية الناس وتثقيفهم وأن حل المشاكل العالقة ليس بالفرار منها وقبولها بل يحتاج إلى السعي لمواجهتها. يستند الشخصية الرئيسة في هذه الرواية إلى منطق علمي وهذا من أهم الإنجازات البشرية

فى القرن الماضى الذى تم إنعكاسه فى الرواية. يعبر توفيق عن الآلام الاجتماعية وهذا أمر يحظى بأهمية بالغة. إذن الكاتب قدّم ما كان بوسعه كمتقّف فى المجتمع وعالج ما كان يجب معالجته عبر رواية تتناول المشاكل الاجتماعية لدى القرويين مما يدفع شريحة أكبر من القراء خاصة الشباب إلى التأمل فى الموضوع حيث حاول قدر الأمكان توعية مخاطبيه على التبعات الاجتماعية للخرافات وأيضاً المخاوف التى يمكن أن يواجهها المجتمع من التقدم السريع فى العلوم.

المصادر و المراجع

- أبوعياش، عبدالله. (لاتا). أزمة المدينة العربية. ط١. الكويت: وكالة المطبوعات.
- أبومندور، محمد وجمال محمد صيام. (١٩٩٥م). الأرض و الفلاح فى مصر: دراسة فى آثار تحرير الزراعة المصرية. ط١. القاهرة: جامعة القاهرة.
- أمين، جلال. (٢٠١١م). مصر و المصريون فى عهد مبارك. ط١. القاهرة: دارالشروق.
- الأنطاكي، يوسف. (٢٠٠٩م). سوسولوجيا الأدب، الآليات و الخلفية الإيستمولوجية. ط١. القاهرة: رؤية للنشر و التوزيع.
- بوعلى، عبدالرحمان. (٢٠٠١م). الرواية العربية الجديدة. ط١. جدة: منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية.
- توفيق، أحمد خالد. (لاتا). أسطورة النداهة. ط١. القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة للنشر و التوزيع.
- الخطيبى، عبدالكبير. (١٩٧١م). الرواية المغربية. ترجمة: محمد برادة. الرباط: منشورات المركز الجامعى للبحث العلمى.
- رحمانى، أحمد. (٢٠٠٤م). نظريات نقدية و تطبيقاتها. القاهرة: مكتبة و هبة.
- شعيد، جمال. (١٩٨٢م). فى البنيوية التركيبية، دراسة فى منهج لوسيان غولدمان. ط١. بيروت: دار ابن رشد للطباعة و النشر.
- شعلان، عبدالوهاب. (٢٠٠٨م). المنهج الاجتماعى و تحولاته من سلطة الأيديولوجيا إلى فضاء النص. ط١. الأردن: عالم الكتب الحديث.
- صالح، ولعة. (٢٠٠١م). «البنيوية التكوينية و لوسيان غودمان». مجلة العلوم الاجتماعية و الانسانية "التواصل". العدد ٨. جامعة عنابة. صص ٢٦٩-٢٤٥
- صحراوى، إبراهيم. (١٩٩٩م). تحليل الخطاب الأدبى. دار الآفاق. ط١. الجزائر: لانا.
- عبدالحنان، محمد. (٢٠١٧م). «المجتمع المصرى فى رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق». مجلة أقلام الهند (فصلية محكمة). العدد ٤. السنة الثانية. صص ٨٥-٦٢

- عبدالمجيد، محمد سعيد وممدوح عبدالواحد الحيطي. (٢٠١٥م). «التحولات الاجتماعية والسياسية وسمات الشخصية المصرية». مجلة حوليات آداب عين شمس (دورية علمية محكمة). المجلد ٤٣. العدد ٢. صص ٤٣٦-٣٦٧
- عسكري، عسگر. (٢٠١٠م). نقد اجتماعي رمان معاصر فارسي. ط ٢. طهران: نشر فروزان.
- غولدمان، لوسيان. (١٩٨١م). المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة. ترجمة: نادر ذكري. ط ١. بيروت: دار الحدائق للطباعة والنشر والتوزيع.
- _____ (١٩٨٢م). «الوعي القائم والوعي الممكن». ترجمة: محمد برادة. مجلة آفاق. العدد ١٠. صص ٢١-٤٥
- _____ (١٩٩٣م). مقدمات في سوسيولوجية الرواية. ترجمة: بدرالدين عروديكي. بيروت: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- _____ (١٩٩٦م). العلوم الإنسانية والفلسفة. ترجمة: يوسف الأنطاكي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- _____ (٢٠١٠م). الإله الحفي. ترجمة: زبيدة القاضي. ط ١. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
- محمود، عبدالمجيد. (٢٠١٤م). الفساد، تعريفه، صورته، علاقته بالأنشطة الإجرامية الأخرى. القاهرة: دار نهضة مصر للنشر.
- مسعودي، الحواس. (١٩٩٩م). «النصوص الحجاجية». مجلة اللغة والأدب - ملتقى علم النص - العدد ١٤. جامعة الجزائر. صص ٢٨٣-٢٦٠
- مشري، بن خليفة. (٢٠٠٠م). سلطة النص. رابطة كتاب الاختلاف. ط ١. جويلية.
- منتظري، آزاده ومحمد خاقاني ومنصوره زركوب. (٢٠١٢م). «النقد الاجتماعي للأدب نشأته وتطوره». السنة الثانية. العدد السادس. تهران: مجلة إضاءات نقدية. صص ١٧٢-١٥١

المصادر الإنكليزية

- Camus, Albert. (2008). Neither Victims Nor Executioners. Wipf & Stock Pub. Eugene, Oregon. USA.
- Greenberg, Nathaniel. (2018). "Ahmed Khaled Towfik: Days of Rage and Horror in Arabic Science Fiction". Journal Critique: Studies in Contemporary Fiction. Volume 60. Issue2. pp169- 178.

الموقع الإلكتروني

عرب ٤٨، ٢٠١٦م، عثمان بركة:

[-www.arab48.com/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9-](http://www.arab48.com/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9-)